

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

وبعد ..

فإن قضية «الإيمان» ليست أمراً على هامش الوجود ، يجوز لنا أن نُغفله أو نستخف به ، أو ندعه في زوايا النسيان ، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره ؟ بل أجد قضية الإيمان هي أعظم «قضية مصيرية» بالنظر إلى الإنسان . إنها سعادة الأبد أو شقوته ، إنها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ ، فكان لزاماً على كل ذى عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها .

وقد فكر الكثيرون من أولى الألباب ، وانتهى كل منهم إلى إثبات العقيدة في الله بطريقه الخاص .

فمنهم من استند إلى صوت الفطرة في أعماقه ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] .. ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

[الروم: ٣٠] ..

ومنهم من اعتمد على مبدأ «السببية» الذي يقرر أن كل صنعة لا بد لها من صانع ، وكل حادث لا بد له من مُحدث ، وكل حركة لا بد لها من محرك ، وكل نظام لا بد وأن يكون وراءه مُنظِّم ، وهذا المبدأ ثابت ثبوت الأوليات البديهية في العقول .

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية ، رياضية ، فانتهى إلى أن الأضمن

لحياته ، وما بعد حياته ، أن يؤمن بالله وبالآخرة والبعث والجزاء . وفى مثل هذا يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات ، قلتُ : إليكما  
إن صح قولكما فليست بخاسرٍ أو صح قولى فاخسار عليكما  
وقال الفيلسوف الرياضى «باسكال» :

«إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك ، فماذا تختار ؟ إن عقلك لعاجز كل العجز أن يختار ، وإنها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة ، رمى فيها كل منكما بسهمه ، ولا بد أن يربح أحد السهمين .. فوازن بين كل ما يمكن أن تربح ، وما يمكن أن تخسر . وإذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول - أى على وجود الله - فإذا كسبت الرهان ، فقد حصلت على سعادة أبدية . فإذا أخفقت فسوف لا تفقد شيئاً مهماً .. فليست تخاطر إلا بشيء فان ، وكل غمٍ فانٍ - ولو كان محقق الوقوع - محتمل ومعقول .»

ونحن نزيد على هذا فنقول : إن الذى يؤمن بالله والدار الآخرة لا يخاطر بدينه الفانية ليربح آخرته الباقية .. كلا ، إنه بإيمانه يربح الحياتين معاً ، ويفوز بالحسنين فى الدنيا والآخرة جميعاً . وصدق الله العظيم : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النساء : ١٣٤] ، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ [النحل : ٣٠] ..

إن العبادات التى فرضها الدين إنما هى وسائل لتزكية نفس المؤمن وترقية روحه ، وما يبذل فيها من جهد ، إلى جنب ما يكسب وراءها من خير .

وإن المحرمات التى حظرها عليه الدين ، إنما صان بتحريمها عقله وحُلقه ونفسه وماله وعرضه ونسله ، فهو إنما ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ..

والدين إذا حرم على الناس شيئاً عوضهم ما هو خير منه ، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرم .

إن المؤمن لم يخسر شيئاً بعبادة الله سبحانه ، واتباعه ما حرم الله عليه ، وإنما ربح الهدى والاستقامة على الحق ، والثبات على الخير ، والاستعلاء على الشهوات ، وريح بعد ذلك هدوء النفس وطمأنينة الحياة .

وفى عصرنا هذا أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهئين ، حتى إن كثيراً منهم ليرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع أو ما تقوم البراهين على صحته . وقد قام مذهب برأسه ينادى بأن «المنفعة مقياس الحقيقة» ويصر على أن المهم من كل شيء هو نتائجه وما يترتب عليه من آثار فى حياتنا العملية .. وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع ، بل انسجامه مع ما يقع ، وهكذا ، فكل شيء يُحكم عليه بما يتبعه من نتائج ، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا ، ومع ما نريد من مقدماتها ، كانت خيراً وصدقاً وحقاً . وإن كانت غير ذلك كانت شراً وكذباً وباطلاً ، ولا يوصف الفعل بحسن ولا قبح ، ولا يُوصف القول بالصدق والكذب حتى تُعرف ثمرته<sup>(١)</sup> هذا هو مذهب «البراجماتزم» .

ونحن لا نخشى هذا المذهب على عقيدتنا - وإن كنا لا نوافق عليه فى الجملة - فإننا نؤمن أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضر شيء بالناس هو الباطل ، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء بالسائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابى على وجه الماء حين يسيل به الوادى ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يُوقد عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال الله معقلاً على هذا التمثيل : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] ..

(١) مقتبس من خاتمة الدكتور محمود حب الله لكتابى «إرادة الاعتقاد» و«العقل والدين» لوليم جيمس .

والذى يمكث فى الأرض هو الحق ، وهو الذى عبّر عنه القرآن : ﴿ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ .. إنه ينفعهم مادياً ومعنوياً ، ينفعهم أجساماً وعقولاً وقلوباً ، وينفَعهم أفراداً وجماعات ، وينفَعهم دنيا وآخرة .

إننا إذا وافقنا على اعتبار المنفعة فى الجملة فإننا نختلف مع الماديين فى قياس المنفعة ، وتحديد نوعها ومداها . نحن لا نقيس المنفعة بالكم وبالمادة فحسب ، ولا نعتبر المنفعة الفردية وحدها ، بل نُدخل فى اعتبارنا الكم والكيف والمادة والروح ، والفرد والمجتمع جميعاً .

بل نحن لا نُقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا ، بل نضع فى حسابنا دائماً الحياة الآخرة حياة الخلود التى أُعدت للإنسان وأُعد لها الإنسان .

هذه السطور تمهيد لا بد منه ، لبيان غرضنا من تأليف هذا الكتاب : « الإيمان والحياة » (١) .

إننا نريد أن نُلقى بعض الضوء على الآثار المباركة للدين فى حياة الإنسان . مقتصرين على الدين فى جانبه العقدى . الدين باعتباره إيماناً بالله وبرسالاته ، وبالدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب .

وفى هذا الكتاب سنتبين بوضوح تلك الفردية الظالمة ، التى زعمت أن الدين مُخدرٌ للشعوب . أو مُعوقٌ للحياة ، كما يزعم الماركسيون .

أجل ، لو أننا احتكنا إلى مقياس المنفعة وحدها ، ورضينا منطق الذين لا يعتنقون فكرة إلا لمصلحة ، ولمصلحة دنيوية فحسب لوجدنا الدين - مع هذا - ثقيل الميزان مبین السلطان ، فقد أثبت التاريخ والاستقرار لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها : ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ، وتزكو نفسه . وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى .

---

(١) هذا الكتاب هو الذى سبق أن أعلنت عنه بعنوان « العقيدة والحياة » ولكنى آثرت أن أستعمل الكلمة التى استعملها القرآن الكريم فى التعبير عن العقيدة وهى كلمة « الإيمان » ولا شك أن إحياءها أعمق وأقوى .

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مهيب الريح لا تستقر على حال ، ولا تُعرف له وجهة ، ولا تسكن إلى قرار مكين . الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور ، إنسان قلق متبرم حائر ، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده ، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة . ولماذا ألبسه إياه ، ولماذا ينزعه عنه بعد حين ؟! وهو بغير دين ولا إيمان : حيوان شره أو سبع فاتك ، لا تستطيع الثقافة ولا القانون - وحدهما - أن يُحدا من شرايته ، أو يُقلما أظافره .

والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمع غابة . وإن لمعت فيه بوارق الحضارة . الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى ، لا للأفضل ولا للاتقى . . مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم . مجتمع تافه رخيص لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج فهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد : ١٢] . .

و(العلم) المادى وإن امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، ليس بمستطيع أن يُحقق الطمأنينة والسعادة للناس ، لأن العلم يُرقى الجانب المادى للحياة ، فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل إلى مدة أقصر ، ولهذا سموا عصرنا هذا «عصر السرعة» أو عصر «التغلب على المسافات» .

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر «الفضيلة» أو عصر «الطمأنينة» أو عصر «السعادة للبشر» ؟

إن العلم هياً للإنسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه لم يهده إلى غاياتها ، إنه زين له ظاهرها . ولكنه لم يصله بأعماقها ، وما أتعس الإنسان إذا أغرقتة الوسائل عن الغايات . وإذا شُغل بالسطح عن القاع ، وبالقشر عن اللبأ ! العلم المادى أعطى الإنسان أدوات كثيرة ولكنه لم يعطه «قيمة» كبيرة أو «هدفاً» رقيقاً يحيا له ويموت عليه .

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليست من اختصاصه . وإنما ذلك من اختصاص الدين .

ولقد رأينا من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمن بالله . ولكنهم يؤمنون بالإيمان بالله ! أى يعتقدون بنفع هذا الإيمان باعتباره قوة هادية موجهة ، وقوة مؤثرة دافعة ، وقوة منشطة خلّاقة .

لم يستطع هؤلاء أن يجحدوا ما للإيمان بالله من طيب الأثر فى نفس الفرد وفى حياة المجتمع ، فقال بعضهم : لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه !! أى نخترع للناس إلهاً يؤمنون به ! ويلتمسون رضاه ، ويخافون حسابه ، حتى ترتدع الأنفس الشريرة ، وتستقيم أخلاق الجماهير .

وقال آخر: لم تشككون فى الله . ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى !؟ ونحن لا نوافق على منطق هؤلاء فى عمومهم ، فإن الحق أحق أن يتبع مهما تكن نتيجته ، والأباطيل يجب أن تطارد كيفما كانت العاقبة . ولكن الذى يعيننا من قول هؤلاء - وهم خصوم الدين وأعداء الإيمان - أن أثر الدين والإيمان فى النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ، ولو كان من خصوم الإيمان .

إن الحقيقة يجب أن تُحترم لذاتها ، وإن لم تجلب نفعاً ، أو تدفع ضرراً ، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع ، وأطيب الثمرات !؟

وجود الله تعالى وتفردَه بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة ، وبعثة النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة والآخرة - كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والإيمان به واجب ، لأنه حق . ومع أنه حق ، فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقى الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره فى النفس والحياة إنما نعنى الإيمان القوى الدافع . الإيمان حين يبلغ مدها ، ويشرق على القلوب سناه ، ويخط فى أعماق النفوس مجراه ، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع ، الإيمان المخدر النائم ، إنما نتحدث عن الإيمان الحى اليقظ . ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون ، فإننا نناقش هنا الماديين الذين يُشككون فى قيمة الإيمان . ليتعلموا أن الإيمان الذى يحاربونه كلما زاد عمقه فى القلوب ، وسلطانه على النفوس ، ازداد أثره المبارك فى حياة الأفراد والجماعات .

وإذا كان هذا أثر الإيمان عموماً ، فإن الإيمان الإسلامى خصوصاً أكثر نفعاً وأطيب ثمراً ، فإن الإيمان فى الأديان الأخرى قد علق به ما شابه وكدر صفاءه . وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان ، أو من سلوك رجالها ، بأنها عدو للحياة أو أفيون للشعوب . كما زعم « كارل ماركس » اليهودى ، وتلقفها البيغاوات هنا ، فرددوها ترديد الحاكى ، دون بصر ولا تمييز ، فإن الدين هنا غير الدين هناك ، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك .

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة ، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية ، وتجعل الخضوع لغير الله كفراً وفسقاً وظلماً ، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

وإذا كان للدين وللإيمان هذا الأثر فى كل بلاد الدنيا ، فإن أثره عميق ، وضرورته أعظم فى بلادنا الإسلامية والعربية خاصة .

إن لكل قفل مُحكم أصيل مفتاحاً مُعيناً ، مهما تحاول فتحه بغيره كانت محاولتك عبثاً لا فائدة منه ، ولا طائل تحته . إلا إضاعة الوقت والجهد فى تجارب فاشلة .

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين ، هو الإيمان ، هو عقيدة الإسلام .

ومهما نحاول أن نُذكى هذه الشخصية ، وأن نُفجر طاقاتها المكونة بغير مفتاحها الأصيل - وهو الدين والإيمان - فإننا نحاول عبثاً ، كمن يبنى على الماء أو يكتب على الهواء .

بعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم ، يُخرجون العالم من الظلمات إلى النور ، ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة ، وكل من صَعَّر خده من الجبابرة ، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

وبعقيدة الإسلام انتصرت أمتنا العربية على أوروبا ، وقد جاءت بقضتها وقضيضها فى تسع حملات صليبية ، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس فى هذا الشرق المسلم .

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على الشرق كالريح العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢] .. وكادوا يُدمرون الحضارة الإنسانية كلها ، لولا أن قيض لهم الله من مسلمى مصر والشام من ردهم على أعقابهم وهزمهم بإذن الله فى «عين جالوت» . وكان مفتاح النصر صحيحة أطلقها القائد المملوكى «قطز» فهزت المشاعر ، واستثارت العزائم ، وأيقظت الهمم ، وهبَّت بها على المقاتلين نسَمات الجنة . تلك هى الصيحة التاريخية «وإسلاماه» .

وأمتنا العربية اليوم تحارب عدواً شريراً يجثم على صدرها ، ويحتل قلب ديارها ، ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق ، ذلك ، هو «إسرائيل» التى تمدها وتعاونها كل قوى الكفر فى العالم شرقيه وغربيه .

ولن نجد - فى حربنا مع هذا العدو - سلاحاً أمضى ولا أبقى من الإيمان . لا بد من العتاد الحربى والقوة المادية التى أمرنا الله بإعدادها ، لثُرب بها عدو الله وعدونا ، ولكن السلاح لا يعمل إلا فى يدي بطل ، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان .

ولقد فتن أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة التى قذفنا بها الغرب ، والتى لا تجعل لله ولا لآخرة مكاناً فى الحياة ، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادماً وأداة يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتدينة أو إلهائها أو استثارتها لغرض موقوت .

ومن أجل ذلك نُحى الدين والإيمان عن مكانه فى قيادة الأمة وتربيتها . وعُزل عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام ، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية الاجتماعية والسياسية ، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أبقيت للدين لا تُسمن من شبع ولا تُغنى من جوع .

فلما قامت المعركة القريبة في ( ٥ يونيو ١٩٦٧ ) بيننا وبين عدونا كان معنا سلاح كثير وإيمان قليل ، فلم يُغن عنا السلاح شيئاً ، لم تغن الدبابات والطائرات والأساطيل وقواعد الصواريخ ، لأن هذه الأسلحة - على حداتها وضخامتها - لم يقيم عليها رجال مؤمنون . ورحم الله المتنبى حين قال :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وهذه حقيقة - على مرارتها وقسوتها - يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنعترف بها ، ونتخذ من هذه التجربة درساً وعبرة ، ونبنى حياتنا على أساس من الإيمان ومقتضياته ونُغيّر ما بأنفسنا ، ليُغيّر الله ما بنا ، وإلا فسنظل كالثور في الساقية .

إن عدونا يُجند أبنائه على أساس ديني ، ويقذف بهم في قلب المعارك بأحلام دينية تدور حول مجد إسرائيل ومُلك سليمان ، ونبوءات التوراة ، فكيف نُنكر نحن دور الإيمان ، ونُنحى المؤمنين ، بل نضطهدهم ونُعذبهم ، ونُلقي بشعارات « النصر للشوار » و « الغلبة للجماهير » وأمتنا لا تعرف إلا أن « النصر للمؤمنين ، والعاقبة للمتقين »<sup>(١)</sup> .

ألا إن كل عمل يُوجه ضد الدين والإيمان في بلادنا إنما هو عمل عدائي موجه إلى صميم كياننا ومقومات حياتنا ، وجذور نهضتنا .

« نحن قوم مؤمنون » وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا ، وسر قوتنا ، ورافع رايتنا هو سر مجدنا في الماضي ، وباعث انتفاضتنا في الحاضر ، ومناط آمالنا في المستقبل .

« نحن قوم مؤمنون » وهذه قضية بدهية ، يجب أن يلتقى على حمايتها وتشبيتها قلم الكاتب ، ولسان الخطيب ، وفكر الفيلسوف ، ووجدان الشاعر وريشة المصور ، وتقنين المُشرّع وسلطان الحاكم ، وقوة الجيش ، ورقابة الشعب . يجب أن يرعاها الأب في البيت ، والمُعلّم في المدرسة ، والأستاذ في

---

(١) انظر في هذا، كتاب « درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف نتصر »؟ للمؤلف .

المحاضرة، والأديب فى القصة ، والصحفى فى الخبر ، والمؤلف فى الكتاب ، وكل  
ذى فن فى فنه .

إن كل ثغرة تُفتح فى أى جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية  
لتُصوّب منها سهام الشك أو الجحود فى صدر الإيمان ، تُعد خيانة عظيمة لأمّتنا  
وخروجاً سافراً على مبادئها ، ومروفاً من صفوفها ، وانضماماً إلى ألد أعدائها ،  
وتعويقاً لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد إيجابى بناء .

وإنى لعلى يقين أن كلمة الإيمان ستعلو وتنتصر ، وأن كلمة الكفر والشك  
ستكون هى السفلى ، وصدق الله العظيم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً  
طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ  
بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ  
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [ابراهيم : ٢٤-٢٦] ..

دكتور

يوسف القرضاوى